المحاضرة الثانية

تكملة خصائص النظم الاسلامية

٤. الاصالة والاستقلال لأنظمة الاسلام : تتميز انظمة الاسلام بانها اصيلة ومستقلة اي قائمة بذاتها في نشأتها وفي تطورها، وأنها ليست مستقاة من مصادر غير الاسلام نفسه، كما انها غير مستوردة او مقتبسة من انظمة بشرية قديمة او حديثة، نظراً لاكتفائها بذاتها، وتطورها وفقاً لقواعدها الخاصة بها.

فمصادرها الاصلية وحي إلهي لا دخل للبشر فيه وهما الكتاب والسنة، قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)، وقال ايضاً: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وقال عن السنة النبوية: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)، وقال ايضاً: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى). فمن هذين المصدرين العظيمين (الكتاب والسنة) نشأت أنظمة الإسلام، ثم تنامت وتوسعت فروعها بطريق الاجتهاد الفقهي حتى تناولت كل قضايا الحياة في اطار قواعد الشريعة واصول الاجتهاد التي وضعتها الشريعة نفسها لاستنباط الاحكام للوقائع المتجددة في الحياة كالإجماع والقياس والمصلحة وغيرها والتي سميت بالمصادر التبعية، وهذه ايضاً لا مدخل فيها للأهواء بل هي مناهج معلومة وقواعد مرسومة توصل الى معرفة حكم الله في المسائل بطريقة الاجتهاد ضمن علم مخصوص اسمه علم أصول الفقه، يجعل الاحكام المستنبطة موافقة للكتاب والسنة ومبنية عليهما.

وهكذا يظهر ان أنظمة الإسلام أصولها وفروعها اصلية في نشأتها مستقلة بطريقة خاصة بها في النمو والتطور، وقد حصنها الشارع الحكيم لحفظ هذه الاصالة والاستقلال بقوله تعالى: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)، وقال ايضاً: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)، وقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد) أي مردود عليه.

فأنظمة الإسلام اصيلة ومستقلة لم تتأثر بقوانين رومانية او شيء من اليهودية او مسيحية كما يفتري بعض المستشرقين.

٥. مرونة انظمة الاسلام : نقصد بالمرونة : قابلية التشريع للتطور ومواكبة المصالح المتجددة والنماء المستمر بما يتلاءم وحاجات المجتمع وتحقيق المصالح المشروعة لكل زمان ومكان، وهذه خصيصة من خصائص الفروع الفقهية لأنظمة الاسلام.

تقوم انظمة الاسلام على اصول وفروع، فأصولها ثابتة مثلها مثل السياج الذي يحمي من التردي والسقوط، وفروعها متطورة متغيرة بحسب المصالح والحاجات ولكن في إطار تلك الاصول الثابتة.

فبناء انظمة الاسلام بجواز الاجتهاد في تفهم المراد من النصوص من جهة، والاجتهاد لاستنباط الاحكام الشرعية للوقائع المتجددة عبر العصور استجابة لمصالح الناس المتجددة، وهذه المرونة العظيمة جعلت تلك الانظمة التي تعالج مختلف ميادين الحياة، حيث تمد الحياة بمختلف الحلول للوقائع المتجددة بما يحقق المصالح المشروعة في الحياة وبما يتلاءم مع تطورها، فالتشريع الاسلامي وان كانت اصوله ومبادئه ثابتة لا يلحقها التغيير والتبديل الا ان الفروع الفقهية التي تدخل في بناء انظمة الاسلام نامية ومتحركة وحية ومتجددة مما جعل انظمة الاسلام صالحة لكل زمان ومكان ومؤهلة للخلود والبقاء .

وهذه المرونة التي لا تعرف الجمود منشأوها في الاسلام من اربعة وجوه :

اولا: مرونة مصادر الاسلام التبعية كالأجماع والقياس والمصلحة المرسلة وغيرها، وقد سميت بالمصادر التبعية لأنها تابعة للمصادر الاصلية (الكتاب والسنة)، فالمصادر التبعية تقدم حلول اجتهادية لكل الوقائع والقضايا المتجددة في العصر في إطار الكتاب والسنة.

ثانيا: نص الكتاب والسنة في القضايا التي تخضع للتطور بطبيعتها على المبادئ العامة وترك الجزئيات والتفريعات للاجتهاد الفقهي لكل زمان ومكان كما هو الحال في النص على مبدأ الشورى ومبدأ العدالة والاصلاح والمصلحة.

ثالثا: جواز تغير الاحكام الاجتهادية بتغير الزمان، حيث تتغير الاحكام المبنية على المصالح والاعراف تبعا لتغير ما بنيت عليه من مصلحة او عرف، وجمهور العلماء يقولون بتغير الاحكام بتغير الزمان شاملا لكل الاحكام ما لم يرد فيه نص من كتاب او سنة او اجماع .

رابعا: جواز تعدد الرأي في المسألة الواحدة، اذا وجد في هذه الآراء الاجتهادية السائغة المبنية على قواعد اجتهادية صحيحة، يعطي الحرية في اختيار اي من هذه الآراء للعمل به وتطبيقه .

٦. انظمة الاسلام مثالية واقعية : تجمع انظمة الاسلام بين امرين فهي مثالية ولكنها واقعية في نفس الوقت تراعي الواقع الانساني.

حيث تسعى انظمة الاسلام الى ابلاغ الفرد والجماعة الصورة المثلى في جميع جوانب الحياة، وذلك بوضع التشريعات والاحكام المفضية الى ذلك، بإيجاد الضمانات المحققة لها، اي تحقق الصورة المثلى لحياة الفرد والجماعة مهما كانت الحياة على درجة كبيرة من الملابسات والتعقيدات والتشابك من الناحية الاجتماعية و الاقتصادية ...الخ.

والسبب الاساس في قدرة انظمة الاسلام على تحقيق الصورة المثلى هو مصدرها الالهي، والهدف وراء المثالية هو ايصال الفرد والمجتمع الى اعلى درجة ممكنة من الكمال والسمو.

وتتمثل هذه المثالية بما شرع في انظمة الاسلام من تشريعات وما تضمن من ضمانات ووسائل تفضي الى ان يصوغ الفرد نفسه وكذلك المجتمع طبقاً لتعاليم الاسلام في كل جوانب الحياة.

واعلى صورة لهذه المثالية على صعيد التطبيق بالنسبة للفرد تمثلت في شخص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي وصفه الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).

ان أنظمة الإسلام التي تدعو الى المثالية وبلوغ اعلى درجة منها، لا تغفل عن طبيعة الانسان وواقعه، لذلك وضعت حدا اعلى تظهر فيه المثالية مع ذلك وقبلت من الانسان ما يتيسر منه من صعود في هذا السلم باتجاه المثالية.

ومزيدا من الواقعية في الإسلام انه افترض ان الانسان قد يهبط حتى الحد الأدنى المقبول شرعا فيقع منه ترك بعض الواجبات او فعل بعض المحرمات، لذلك راعى واقعه كبشر يحتاج الى التقويم المستمر ففتح له باب التوبة ليتمكن من الارتقاء من جديد.

وثمرة هذه الخصيصة عظيمة الأهمية كبيرة الأثر، اذ تجعل الفرد والجماعة في حالة حركة ارتقاء دائمة صعودا للصورة المثلى للحياة.

٧- توافق أنظمة الاسلام مع الفطرة : الاسلام دين الفطرة والفطرة هي جملة رغبات وميول وغرائز وحاجات روحية وعقلية وجسدية لا قيام لحياة انسانية سوية بدون ارضائها والتوافق معها .

اذ يحس الانسان بالشقاء والاكراه والتعاسة بمصادمة النظم التي يعيش في ظلها لهذه الفطرة ومعاكستها وخنقها او الجهل بها او تجاهلها ، فبدون الاستجابة لنداء الفطرة والتوافق معها الى الحد المرضي والمعقول يكون النظام قهريا او قسريا لا يمكن العيش معه او في ظله بصورة طبيعية وينتج عنه من الشقاء والبؤس للنفس الانسانية ، فالموازنة الدقيقة بين اقرار نداءات الفطرة من جهة ، ووضع القيود المهذبة من جهة اخرى ، يحتاج الى علم كامل ومعرفة تامة بالنفس الانسانية وعلم كهذا لا يكون موجودا الا عند خالقها .

قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) وقال (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال (هو اعلم بكم اذ انشأكم من الارض واذ انتم اجنة في بطون امهاتكم)

ذلك ان الجانب الروحي يشبع حاجة فطرية في النفس البشرية لا غنى عنها ، وبحرمانها من هذا الجانب لا تجد النفس الانسانية حالها الا صريعة القلق والاضطراب والتعاسة التي قادت الكثيرين الى الانتحار في المجتمعات المادية الخالصة كما تشير الى ذلك الاحصائيات .

والجانب المادي من انظمة الاسلام يشبع حاجة فطرية ايضا لا غنى للانسان بفطرته عنها وبدون اجتماع هذين الجانبين لا يحصل التوافق مع الفطرة .

٨- ارتباط أنظمة الاسلام بتحقيق المصالح الانسانية : وفي هذا يقول العلماء : ان الشريعة كلها مصالح ، اما درء مفاسد أو جلب مصالح ، ومن النصوص الدالة على ذلك : قوله تعالى (ان اريد الا الاصلاح ما استطعت) وقوله (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) وقوله (والله يعلم المفسد من المصلح) وقوله (وما كان الله ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) وقوله (انا لا نضيع اجر المصلحين)

ويظهر تحقيق المصالح للفرد والجماعة من عدة وجوه :

الوجه الاول – تعليل الشارع للنصوص القرآنية ونصوص السنة النبوية بجلب المصالح ودرء المفاسد ، مما يدل على قصد الشارع من تشريع تلك النصوص وغيرها ، قال تعالى (ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب) وقوله (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)

الوجه الثاني – نصوص القران الكريم تدعو للمصلحة وتعلل الهدف من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم هو الرحمة بالناس ، قال تعالى (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) .

الوجه الثالث – ايقاف العمل بالحكم الاصلي والترخيص بغيره تحقيقا للمصلحة ، فمن ذلك رخصة أكل الميتة عند الضرورة حفظا لمصلحة الحياة ورخصة نظر الطبيب الى ما لا يحل النظر اليه من المرأة - اذا لم توجد طبيبة – حفظا لمصلحة الحياة ورخصة الافطار في نهار رمضان للحامل والمرضع والمريض والمسافر ...الى غير ذلك من الرخص .

الوجه الرابع – حتمية تحقيق المصلحة من خلال النظر الى مقاصد الشريعة وهي الضروريات (حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال) والحاجيات والتحسينيات .

٩- بناء انظمة الاسلام على ثنائية الجزاء : المقصود من ثنائية الجزاء اي وجود جزاء دنيوي وجزاء أخروي على مخالفة قوانين الشريعة التي تدخل في بناء انظمة الاسلام للحياة، وهي ميزة تنفرد بها تشريعات الاسلام وانظمته دون غيرها بسبب مصدرها الالهي الذي يمكنها ان تتوعد الناس بجزاء اخروي على مخالفتهم لأنظمة الاسلام، وهذا غير متيسر للأنظمة البشرية فلا يمكن لواضعيها ان يتوعد الناس بجزاء اخروي، لذلك فهي تقتصر على جزاء دنيوي توقعه السلطة عند مخالفة القوانين، اما في انظمة الاسلام فان الجزائين يسريان على كل مخالف لقوانين الشريعة و انظمتها.

ففي الجانب الجنائي مثلا: نجد جزائين اثنين على كل معصية سواء كانت جرائم حدود او قصاص او تعزير او مخالفات مدنية او اخلاقية في كل انظمة الاسلام ، قال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا). ولا يخفى أثر هذه الخصيصة في اصلاح المجتمع وزجر الانسان عن الفساد وارتكاب الجرائم الجنائية لان الانسان مسؤول عن اعماله في الدنيا ويجازى عليها في الاخرة فان احسن فلنفسه وان اساء فعليها .

١٠- صفة العموم في أنظمة الاسلام : ان انظمة الاسلام من حيث اصولها وقواعدها الاساسية عامة من حيث الزمان وعامة من حيث المكان:

فمن حيث العموم الزماني : جاءت نصوص الاسلام وقواعده الاساسية للزمان كله من حين اكتمل التشريع خلال فترة الرسالة الى يوم القيامة، واساسه ان رسالة الاسلام مشرعة من الله تعالى العالم بغيب الماضي والحاضر والمستقبل، فهو عالم لما يصلح احوال البشرية على مر العصور، قال تعالى: (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

اما العموم المكاني : فان الإسلام أرسل الى البشر جميعا في كل مكان فهو دعوة عالمية لأنه يمثل هداية الوحي الإلهي لأهل الأرض جميعاً، واساسه **ان رسالة الإسلام بأنظمتها المتنوعة للحياة هي دعوة عالمية للبشر جميعاً في كل مكان وزمان على الأرض** ، بان يستجيبوا لهداية الله تعالى التي جاء بها سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال (وما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وقال (قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا).

المصادر:

١- النظم الاسلامية : د. منير حميد البياتي

٢- النظم الاسلامية : د. حسن حسين الحاج

٣- النظم الاسلامية : د. عبد العزيز الدوري

٤- النظم الاسلامية : د. صبحي الصالح